
البحث (٤)
نهاية الكلام
في صفة الكلام
أ . د / عبد المعبود مصطفى سالم



المقدمة

أطلق الكلام في لغة العرب وأريد به الأصوات المتوالية والتى تتكون من حروف ومقاطع وتدل في نفس الوقت على معني ويطلق عليه اسم الكلام اللفظي كما يطلق ويراد به المعني القائم بالنفس ويعبر عنه بألفاظ وكلمات وهذا يطلق عليه اسم الكلام النفسي على ما قال الشاعر :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً [١]

وفي نفس المعني يقول تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ [٢] .

وفي نفس المعني أيضاً يقول سيدنا عمر رضي الله عنه في يوم السقيفة " زورت في نفس مقالاً " يعني حسنت ورتبت وزينت كلاماً كنت أود أن أقوله [٣]

ولا شك أن الكلام بقسمية السابقين حاصل وواقع بالنسبة للإنسان وهذا من الأمور المشاهدة والمرئية لنا إذ به نتخاطب ونتفاهم كما أن الإنسان منا تجول في نفسه المعاني ويمكنه أن يعبر عنها بالألفاظ والحروف والكلمات كما يعبر عنها كذلك

---

(١) البيت ينيب للاخطل وليس في ديوانه راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٩ .

(٢) سورة المجادلة الآية رقم : ٨ .

(٣) مباحث في علم التوحيد الإلهيات لشيخ الأزهر الشيخ طنطاوي ص ١٢٢ .

بوسائل الكتابة التى يمكن أن نقرأها ونتعلمها ونعلمها هذا بالنسبة للبشر أما بالنسبة لمولانا تبارك وتعالي فقد أسندت الآيات الكريمات الكلام إليه سبحانه كما جاء في قوله عز من قائل ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (١).

واضفنا الكلام إليه كذلك إذ نقول كلام الله وذكر الله وقد أجمعت الأمة على أن الله تعالي له كلام يتلي هو القرآن الكريم وأن ما في هذا الكتاب هو كلامه جل ذكره وتحدث أهل السنة عن كلام الله المتمثل في المعني النفسي كما أطلق على الكلام اللفظي وإذا كان القرآن الكريم قد نسب الكلام إلي الله في أكثر من آية فمعني هذا أنه متكلم ولا يفهم منه إلا ذلك وإذا كنا سنتحدث في صفة الكلام بالنسبة لمولانا تعالي فإن هناك عدة أسئلة تدور في الأذهان يجب أن نتحدث فيها وأن نجلي أمرها أمام القارئين على رأس هذه الأسئلة ما معني وصف الله بالكلام ؟؟ وما هي صفة الكلام التى يتصف بها تعالي ؟؟ وما هي آخر كلمة تقال في مسألة خلق القرآن هل هو قديم أم حادث ؟؟ إلي غير ذلك من أسئلة .

إثبات صفة الكلام لله تعالي :

قيل إن علم الكلام ما سمي بهذا الاسم إلا لكثرة الكلام الذي دار حول هذه الصفة وكثرة الخلاف الذي وقع بين العلماء حول إثباتها أو نفيها وأهل السنة لا يختلفون فيما بينهم على إثبات هذه

---

(١) سورة النساء الآية رقم : ١٦٤ .

الصفة بالنسبة لمولانا تعالي غير انهم اختلفوا في المنهج فلكل واحد منهم منهجه الخاص به والذي ينفرد به عما عداه .

والخلاصة أن أهل السنة قد اتفقوا على أن كلام الله تعالي صفة أزلية قائمة بذاته تعالي ليست من جنس الأصوات والحروف بها الأمر والنهي منزهة عن التقديم والتأخير والترتيب تدل على جميع الواجبات والمستحيلات والجائزات منزهة عن السكوت والخرص وعن الآفة الباطنية [(١)] وانه منزه عن ضدها تعالي اسمه وضدها البكم والسكوت أو الخرص .

يقول الدسوقي في حاشيته " اعلم أن الكلام يتنوع باعتبار دلالته إلي ستة أنواع وذلك لأنه باعتبار دلالته على طلب الفعل أمر وباعتبار دلالته على طلب الترك نهي وباعتبار دلالته على معنيً مطابق للواقع خبر وباعتبار دلالته على ثواب مستقبل وعد وباعتبار دلالته على وقوع عذاب مستقبل وعيد [(٢)] .

هكذا اتفقت كلمتهم على أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت فهو ليس كلاماً تصنعه الشفتان واللسان أو يخرج من بين الأسنان والفكين لأن هذا كله من شأن الحوادث والحادث عليه تعالي محال وأنها صفة واحدة لها متعلقاتها وأن مدلولاتها كثيرة كما سبق في النص المنقول عن الدسوقي وأنه تعالي منزه في كلامه عن أن تعتريه آفة أو تمنعه من السكوت أو تسلبه القدرة على

---

(١) راجع في ذلك شرح أم البرهين الصغري ص ١١٠ وما بعدها وانظر شرح الشرقاوي على الهدهدي ص ٧٣ وما بعدها .

(٢) حاشية أم البرافعين الصغيرى ص ١١٠ .

الكلام كالخرس كما سبق الكلام هكذا اتفقت كلمتهم والمتدبر لكلام أهل السنة جميعاً يري أنهم عنوا بها الكلام النفسى فهو الثابت لله تعالي إذ هو المنزه عن الحرف والصوت والآفة وغيرها مما يتصف به كلام البشر إذ يحتاج إلي ترتيب وتنظيم فلا ينطق بالحرف الثاني إلا إذا انتهي الأول ولابد من السكوت بين الجمل وبعضها وبين الكلمات وبعضها وكل هذا بعيد عن الكلام النفسى الذي عناه أهل السنة رضوان الله عليهم كما ينتفي السكوت النفسي بأن لا يدبر في نفسه كلاماً لآفة عارضة أو لضعف في النطق أو غير ذلك من العوارض التى لا تليق إلا بالحوادث [١] .

جل الله وتنزه عنها :

وإذا كان ما سبق هو رأى أهل السنة في المسألة فما رأي الآخرين فيها جمع الشيخ صاحب شرح العقيدة الطحاوية هذه الآراء في تسعة أقوال ومنها رأى أهل السنة والجماعة فقال ما نصه وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال

أحدها : أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها : أنه مخلوق خلقه منفصلاً عنه وهذا قول المعتزلة

(١) مباحث في علم التوحيد الإلهيات لشيخ الأزهر دكتور محمد سيد طنطاوي ص ١٢٣ .

وثالثها : أنه معني واحد قائم بذات الله تعالي هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار إن عبر عنه بالعربيةً كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة وهذا قول ابن كُلاَّب ومن وافقة كالأشعري وغيره .

ورابعها : انه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث .

وخامسها : انه حروف وأصوات لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً وهذا قول الكرامية وغيرهم ممن وافقهم الرأي .

وسادسها : أن كلامه تعالي يرجع إلي ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر (أبو البركات البغدادي) ويميل إليه الرازي في المطالب العالية .

وسابعها : أن كلامة يتضمن معني قائماً بذاته هو ما خلقة في غيره وهذا قول أبي منصور الماتريدي .

وثامنها : أنه مشترك بين المعني القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات وهذا قول أبي المعالي (الجويني) ومن تبعه .

وتاسعها : انه تعالي لم يزل متكلماً إذا شاء ومتي شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وان نوع الكلام قديم وإن

لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة [١] .

هذه جملة الأراء جمعها شارح العقيدة الطحاوية والملاحظ انه في الرأى الخامس نسبه إلي طائفة من أهل الكلام ونسبه إلي أهل الحديث لكن في ذلك نظر إذ أن العاقل يستبعد نسبة هذا الرأى إلي أهل الحديث فمن اشتغل بحديث رسول الله وتعامل مع السنة الشريفة المطهرة لا يقول بمثل ذلك فهذا القول بعيد عن الصواب جداً ولا أصل له في السنة الشريفة كما لا توجد له إشارة في كتاب الله عز وجل [٢] .

الدليل على ثبوتها لله تعالي :

والناظر إلي أدلة أهل السنة يجد أنها تنوعت فمنهم من ذهب إلي أنها سمعية ومنهم من رأي أنها سمعية وعقلية معاً ومنهم من استدل عليها بطريق الإجماع وإلي القارئ الكريم كلمة عن تلك الأدلة وما قيل فيها على لسان أئمة أهل السنة والجماعة

<u>أولاً طريق الاجماع :</u> ذهب فريق من أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني والايجي صاحب كتاب المواقف وغيرهما إلي أن طريق الاستدلال على إثبات

---

(١) شرح الطحاوية تحقيق دكتور عبد الله التركي وآخر ص ١٧٣ وما بعدها .

(٢) انظر نفس المرجع السابق ص ١٧٣ .

صفة الكلام لله تعالي هو الإجماع [١] كما أطلقوا عليها اسم الكلام النفسي واحتجوا لتلك التسمية بأن (كل عالم يجد في نفسه حديثا مطابقا لمعلومة بالضرورة وهذا هو معني كلام النفس) عندهم [٢] .

الدليل عند أصحاب هذا المسلك (الإجماع) :

حكي لنا الآمدي مسلك هؤلاء ودليلهم على ما أرتأوه فقال حاكيا عنهم قولهم (أجمع المسلمون على أننا مأمورون ومنهيون في وقتنا هذا بأمر الله تعالي ونهيه وهو إما أن يكون قديماً أو حادثاً ولا جائز أن يكون حادثاً فإنه لا قائل بأن الله تعالي يخلق لنفسه في وقتنا هذا أوامر ونواهي فإنها لا تبلغنا ولا نحن في زمن تبليغ فلم يبق إلا أن يكون أمره ونهيه قديماً ولا قديم من الموجودات غير (ذات الله تعالي وصفاته) فكان أمره ونهيه صفة قديمة قائمة به تعالي) [٣] هذا هو استدلالهم على ما أرادوه ويزيدنا الشيخ السنوسي أيضاحاً لهذا المنهج فيقول : (احتجوا على إنه تعالي متكلم بأنه سبحانه ملك ولا يتم الملك إلا بأمر ونهي وبجواز تردد الخلائق بين أمر مطاع ونهي متبع ... وكل صفة جائزة لابد وان تستند إلي صفة أزلية وإلا استحال ما

---

(١) راجع الآمدي ابكار الافكار ج ١ ص ٣١٤ .

(٢) السنوسية الكبري ص ١٩٩ .

(٣) الآمدي أبكار الأفكار ج ١ ص ٣١٤ تحقيق دكتور أحمد المهدي محمد المهدي .

علم جوازه ويستحيل رد الأمر والنهي إلي الإرادة أو العلم وسائر الصفات غير الكلام النفسي .. فيجب إثباته لله تعالي [١].

هذا هو مسلك القائلين بالإجماع وتقريرهم له وأدلتهم عليه غير أن لنا أن نقول لقد توالت الكلمات حول هذا المسلك بين مؤيد له ومعارض على سبيل المثال نري الأمدي والسنوسي لا يرضيهما أولاً يعجبهما هذا المسلك ولا الاستدلال عليه ويتوجهان إليه بالاعتراض والنقد بل يصفونه بأنه ليس يقينيا ولا برهانيا إنه لا يخرج عن رتب الظنون والشكوك ويحتجون لذلك فيذكر الأمدي قائلاً : (إذ يجوز للخصم أن يقول ... إنما وافق على أمرنا ونهينا بالأمر والنهي الحادث في زمن الوحي ولا يلزم من عدم ذلك في وقتنا هذا امتناع التكليف به في وقتنا هذا بواسطة حكاية النبي له ومن بعده العلماء القائمين بأمر الشريعة) [٢] بل إن الأمدي لا يقف في اعتراضه عند هذا الحد بل يقويه ويعززه بوجهة النظر : (بأن السيد لو أمر عبده بفعل شيء في الغد فإنه يعد مأموراً بأمر سيده وأن كان أمر سيده قد عدم في الغد وكذلك لو وصي أولاده بصدقة بعد موته إنهم يعدون مأمورين بأمر والدهم بعد موته وإن كان أمره معدوماً بعد موته ولهذا يوصفون بالطاعة بعد الموت لأمره – ثم ذكر بعد ذلك أي بعد كلام طويل – أن هذا المسلك لا يخرج عن رتب الظنون) [٣].

---

(١) السنوسية الكبري ص ١٩٨ .

(٢) أبكار الأفكار ص ٣١٥ .

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ولم يقف الاعتراض عند هذا الحدبل إن الشيخ السنوسي بعد شرحه لهذا المسلك يأخذ في الاعتراض عليه شأن الآمدي فيقول : (لا مانع أن يكون هذا الجواز لتردد الخلائق بين أمر مطاع ونهي متبع يستند إلي صحة أمر بعضنا إلي بعض فإن قيل يلزم التسلسل أو الدور لأنا ننقل الكلام إلي الأمر منا الذي استند إليه المأمور المطيع له فإنه يجوز أن يكون ذلك الآمر أيضاً مأموراً مطيعاً لغيره فإن كان الغير مأموره لزم الدور وإلاّ لزم التسلسل قلنا لا يلزم ذلك إلا لو كان يجب أن يكون كل شخص آمرا ومأموراً أما مطلق الجواز فيكفي في صحة ما سبق)[١] هذه هي اعتراضات وردت على هذا المنهج .

أما الشيخ الغزالي والرازي فلهما في الاعتراض على هذا المنهج مسلك آخر وكلام طويل نذكر على سبيل المثال يرى الغزالي رضي الله عنه أن من أراد إثبات صفة الكلام للحق تعالي اسمه بدليل الإجماع فقد طلب أمراً مستحيلاً وسام نفسه خطة خسف إذ أن ذلك يؤدي إلي الدور[٢] وكذلك الرازي نجد اعتراضه على هذا المسلك اعني طريق الإجماع لنفس الحجة ونفس السبب[٣] وتوضيح هذا الاعتراض من وجهة نظرهما أن الإجماع الذي يستند إليه هؤلاء لابد أن يستند إلي قول الرسول ونبوة الرسول متوقفة على كون الله الذي أرسله لابد وأن يكون

---

(١) السنوسية الكبرى ص ١٩٨ .

(٢) الإمام الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٣ .

(٣) الفخر الرازي محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٢٥ المطبعة الحسينة ص ١٣٢٣ .

متكلماً فتوقف كلام الله على نبوة الرسول وتوقف كون الرسول مبعوثاً من قبل الله تعالي على كلامه عز اسمه وفي هذا دور واضح فإذا لم يكن الكلام متصوراً في حق للرسل فكيف يتصور كون الرسول مبعوثاً من قبل الله تعالي .

وقد احسن صاحب المواقف عندما عقب على هذا الاعتراض مضعفاً إياه وموجز ما ذكره أن ثبوت النبوة للرسل لا يتوقف على ثبوت الكلام لله تعالي – كما هو الاعتراض – إذ يجوز أن يخلق الله في رسله علماً ضرورياً بأنهم مبعوثون من قبل الحق إلي الخلق بل أن الله يمدهم بالمعجزات التى هي من غرائب الأفعال والنفس بطبيعتها تميل إلي كل أمر غريب وذلك لمعرفة سر غرابته فإذا وقعت المعجزة نظر الناس إليها بمجرد أن تقع ولا يلتفتون إلي ما وراء ذلك من كون الله هو الذي أرسل الرسول أو ثبوت الكلام له أو غير ذلك(١)

وبعد تقرير هذه الاعتراضات وبيان مدي قوتها فإن السؤال الآن يطرح نفسه ويحتاج إلي إجابة السؤال مؤداه أن هؤلاء المعترضين بعد أن قرروا اعتراضاتهم على القائلين بطريق الإجماع على الاستدلال فما هو إذن دليلهم ؟؟ وما هو مسلكهم في إثبات هذه الصفة لله تعالي؟؟ وما هي مرتبة الدليل الذي استعملوه ؟؟ وهل اعترض عليهم أم لا ؟؟ والجواب يتحدث الغزالي رضي الله عنه مستدلا على إثبات هذه الصفة لله تعالي بأنها صفة كمال في الحي وضدها نقص وكل كمال فهو ثابت لله تعالي وكل نقص

---

(١) الايجي شرح المواقف ج ٨ ص ٩١ طبعة ١٩٠٧ طبع دار الكتب .

يجب تنزيه الحق عنه وما دام الكلام في حقنا كما لا وضده نقص فيجب إذن إثبات الكلام لله تعالي ونفي ضده عنه [(١)] وهذا الرأى قد ذهب إليه وقواه شارح العقيدة الطحاوية فيقول : والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص قال تعالي : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ [(٢)] . فكان عباد العجل مع كفرهم اعرف بالله من المعتزلة فإنهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم أيضاً وقال تعالي عن العجل أيضاً - ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ [(٣)] . فعلم أن نفي رجع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم الوهية العجل [(٤)] .

على أن الغزالي ومن سار على دربه لم يسلموا من الاعتراض بل إن العلماء قوضوا دليله وهدموه بالنقد فلم يكن الغزالي بما ذهب إليه موفقاً هو الآخر وموجز نقدهم أن أصحاب هذا الرأي - الغزالي ومن معه - قد بنوا دليلهم على أساس قياس الغائب على الشاهد وهو قياس لا يصح في كل الأحوال والمواقف فلو صح في موقف قد لا يصح في الآخر ومن هنا وصف هذا الدليل بأنه ليس برهانيا ولنضرب لذلك مثلاً على سبيل المثال الولد والإنجاب في حق البشر كمال والعقم بضد ذلك

---

(١) الغزالي الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف من الآية رقم : ١٤٨ .

(٣) سورة طه من الآية رقم : ٨٩ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق دكتور التركي وآخر ص ١٧٥ .

أي نقص في حال الإنسان مع أن الله تعالي يتنزه عن الولد والزوج على عكس البشر أيضا الحواس الخمس بالنسبة لنا كمال وضدها نقص فهل يصح أن نصف الله بالشم والذوق واللمس ؟؟ إنها من صفات الحوادث وهو تعالي منزه عنها لأنها تستلزم الجسمية وعليه فهي بحق كمال في الشاهد نقص في حقه تعالي اسمه فلا يجوز طرد الاتصاف بها في الغائب ، ولا يقال إنه لو لم يتصف بها لا تصف بضدها بل يقال يتعالى الحق عنها وعن أضدادها (١).

وبهذا الاعتراض لا يستقيم الكلام والاستدلال للإمام الغزالي ومن نحانحوه والخلاصة من كل ما سبق أن أهل السنة قد استدلوا على إثبات صفة الكلام لله تعالي بما يسمي بدليل الإجماع حيث أجمع الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وما زال الناس يجمعون على أن الله تعالي متكلم فقد ثبت عنهم أنهم كانوا يقولون لأقوامهم أمر الله بكذا ونهي عن كذا والله تعالي قال كذا وهذا كله من دلاله الكلام فثبوت هذه الأوامر والنواهي تثبت صفة الكلام للحق تعالي (٢) والله مستحق أن يتصف بهذه الصفة إذ سخر كثيراً من الملائكة للقيام بأعمال في هذا الكون وعهد إلي الملائكة المقربين بأعمال أخري منها سفارة جبريل بين الله تعالي وبين رسله وأنبيائه وهي من الأمور التي تحتاج

---

(١) يراجع الشهرستاني نهاية الأقدام في علم الكلام ص ٢٧٠ طبع المثنى بغداد

(٢) انظر أم البراهين الكبرى ص ١٩٦ .

إلي كلام وخطاب [١] كما استدل البعض الآخر بما يسمى بدليل قياس الغائب على الشاهد فهي صفه كمال وكل كمال وجب نسبته إلي الله تعالي لأنه لو لم يتصف بها لا تصف بضدها وضدها نقص والنقص عليه محال [٢] وهذا موجز لما قيل عنهم على أن معني متكلم عندهم ذات قامت بها صفة الكلام ولما كان الكلام اللفظي محالاً في حقه لزم أن يكون المقصود الكلام النفسي فهو صفة قائمة بذاته تعالي كبقية صفات المعاني الأخرى كالعلم والإرادة والقدرة إلي آخر [٣]

الدليل السمعي بأن بوضوح نقص تلك الأدلة ومما يدل على ذلك تلك الاعتراضات التى وجهت إليها لذا نجد فريقاً آخر من أهل السنة ينحون في الاستدلال نحوا آخر وهو ما يسمي بالدليل السمعي ذلك الدليل الذي يعتمد في المرتبة الأولي على القرآن والسنة الشريفة المطهرة .

وعلى رأس هذا الفريق الفخر الرازي فهو ينظر إلي أدلة من سبقه فيجد أنها كلها قد اعترض عليها فيرفضها من الأساس ويعتمد كل الاعتماد على الدليل السمعي فهو في نظرة أسلم وأحكم وفي هذا الشأن يقول : (والمعتمد في الاستدلال على

---

(١) راجع دراسات في الفكر العقدي والأخلاقي في الإسلام ص ١٣٥ طبعة ، ١٩٧٥ م

(٢) انظر حاشية الصاوي على الجريدة ص ٧٦ .

(٣) قارن مباحث في علم التوحيد ص ١٢٣ .

صفة الكلام قوله تعالي – وكلم الله موسى تكليماً) [١] على أية حال فإن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها هي أن أهل السنة جميعاً اتفقوا على إثبات صفة الكلام لله تعالي [٢] واعتمدوا على ما نطق به الكتاب العزيز من ذلك على سبيل المثال قوله تعالي : ﴿ **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي** ﴾ [٣] .

ومن تلك الآيات الدالة على ذلك قوله عز اسمه ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ [٤] . وغيرها من الآيات كثير جاءت في نفس المعني كثيرة ملئ بها القرآن على سبيل المثال قوله تعالي : ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [٥] . وقوله تعالي : ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** ﴾ [٦] . وقوله تعالي : ﴿ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** ﴾ [٧] . وقوله تعالي حكاية عن المشركين يوم **الجزاء** ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ**

---

(١) قارن محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٢٦ والسنوسية الكبرى ص ١٩٦ .

(٢) راجع أبو الحسن الأشعري اللمع في الرد على أهـل الزيغ والبدع ص٣ .

(٣) سورة الأعراف الآية رقم : ١٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية رقم : ٢٥٣ .

(٥) سورة الصافات الآية رقم : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦) سورة مريم الآية رقم : ٥٢ .

(٧) سورة الأعراف الآية رقم : ٢٢.

المُرْسَلِينَ ﴾ [١] . وقوله تعالي : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [٢] . وقد اجمع النحويون على أن الفعل إذا كان بالمصدر لم يكن مجازاً فإذا قال تكليماً فهو على الحقيقة [٣] . وعليه فالله تعالي كما جاء في الآيات السابقة قد وصف نفسه بالكلام فثبت له صفه الكلام من هذا الطريق وقد اشتهر على ألسنة الناس أن موسى صلي الله عليه وسلم وعلى نبينا هو كليم الله وأن الله قد اصطفاه بالكلام كما اصطفي إبراهيم بالخلة كما جاء في قوله تعالي : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [٤] . وعليه فيجب الاعتقاد بأن لله صفة هي الكلام وأن الله بها متكلم لأمرناه واعد متوعد بكلام قديم قائم بذاته تعالي لا يشبه كلام الخلق فهو ليس بصوت ولا حرف يحدث من احتباس الهواء في الحنجرة أو ينقطع من أثر إطباق الشفة وتحريك اللسان كما هو شأن كلام البشر المحدث ولكن كيف أسمع موسى كلامة هذا سيأتي الحديث عنه فيما بعد وأما السنة الشريفة فقد استفاضت في هذا الشأن أيضاً جاء في أكثر من حديث أن الله تعالي متكلم على سبيل المثال لا الحصر قد صرح الرسول (ﷺ) بأن الله متكلم فقد جاء النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) " إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة " أو قال

---

(١) سورة القصص الآية رقم : ٦٥ .

(٢) سورة النساء الآية رقم : ١٦٤ .

(٣) راجع صالح بن إبراهيم البليهي عقيدة المسلمين والرد على اللحدين والمبتدعين ج ٢ ص ٢٢٥ ط ٢ وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٦ .

(٤) سورة النساء الآية رقم : ١٢٥ .

رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبريل على الملائكة فكلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل " قال الحق وهو العلي الكبير " فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلي حيث أمره الله عز وجل [١] .

وفي نفس المعني قوله (ﷺ) : " ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه حجاب " [٢] . وقوله (ﷺ) : " ألا رجل يحملني إلي قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي " [٣] . وفي وصف أهل الجنة وما هم فيه من نعيم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : " بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا أبصارهم وفي رواية رؤوسهم " [٤] . فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [٥] . قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلي شيء مما هم

---

(١) الحديث رواه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن خزيمة رضي الله عنهم .

(٢) انظر تفصيلاً أكثر ابن حزيمة التوحيد وإثبات صفات الرب ص ٩٥

(٣) رواه أبو داود في سننه وابن ماجة كذلك في سننه .

(٤) في رواية ابن ماجه (رؤوسهم) .

(٥) سورة يس الآية رقم : ٥٨ .

فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقي بركته ونوره عليهم في ديارهم [١] .

هذه بعض الأحاديث جاءت تثبت الكلام لله تعالي وغيرها كثير فمن أراد المزيد فعليه بالرجوع إلي كتب السنن كابن ماجه وأبي داود والترمذي وغيرهم كثير بقي علينا أن ندلل على هذه الصفة من العقل

الدليل العقلي على إثباتها :

لم يقف استدلال العلماء عند هذا الحد الذي سبق ذكره بل وجدناهم ينوعون الأدلة ويصفونها إلي نقليه وأخرى عقليه أما النقلية فقد سبق الحديث عنها وأما العقلية فمنها .

١ – أن صفة الكلام صفة كمال والمولي تعالي لو لم يتصف بها لا تصف بضدها وضدها نقص والنقص على الحق تعالي محال فاستحال ما أدي إليه وثبت النقيض فثبتت صفة الكلام النفسي لله تعالي من هذا الطريق [٢] .

٢ – الإجماع الذي وقع من الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات ربي وتسليماته على أنه تبارك اسمه متكلم إذ الثابت عنهم جميعاً أنهم كانوا يذكرون عن الله تعالي أنه أمر بأمره وناه بنهيه وأنه جاءت عنه الأوامر والنواهي بلغها رسله إلي خلقه وهذا دلالة الكلام والعقل يقول بكل صراحة إن ثبوت هذه الأمور لله تعالي تثبت بلا شك صفة الكلام لمولانا عز اسمه إذ لا

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه وأبو نعيم في الحلية ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) راجع حاشية الصاوي على الجريدة ص ٧٦ .

يتصور في حكم العقل غير ذلك بعد ما ثبت له الأمر والنهي فصفة الكلام ثابتة لله تعالي [١]

٣ – ومن الأدلة العقلية التى توصل إليها أرباب العقول إثباتا لهذه الصفة أن الحق عز اسمه قد اخبر عن نفسه في قوله الصدق بأنه متكلم ولا شك أن خبر ربي صدق هكذا في حكم العقلاء إذ أن الكذب – بلا ريب – نقص في حق من كذب والنقص على الله تعالي محال فلا يكون خبر الله تعالي كذبا ويثبت الضد بالضرورة لامتناع الخلو عن الشيء ونقيضه وهذا أبسط قواعد العقول فيمتنع الخلو عن الصدق والكذب معاً وحيث استحال عليه البكم فيثبت له الكلام [٢].

النافون لصفة الكلام :

وبعد هذه البراهين الساطعة والأدلة الناصعة الدالة على ثبوت هذه الصفة لله تعالي سواء من العقل أو النقل إلا أننا وجدنا البعض قد نفاها عن الله تعالي فقد خالف في ذلك الفلاسفة والصابئة ومنكرو النبوات فقد منعوا أن يكون لله كلام نفسي أو صفة يقال لها الكلام النفسي حكاه عنهم الشهرستاني وشرف الدين التلمساني وغيرهم [٣].

---

(١) قارن أم البراهين الكبرى ص ١٩٦ .

(٢) راجع في هذا شرح مطالع الانظار ص ١٨٣ .

(٣) انظر بالتفصيل الشهرستاني نهاية الاقدام في علم الكلام ص ٢٦٨ وأيضاً شرف الدين التلمساني كتاب فيه شرح لمع الأدلة ص ٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٥ .

وقد أبان عن معتقدهم بشيء من التفصيل الفيلسوف ابن رشد فقد أظهر عن معتقدهم في هذه الصفة حدثنا أنهم رجعوها مرة إلي صفة العلم ومرة أخرى إلي صفة الإرادة كما رجعوا الإرادة إلي العلم يقول الفيلسوف ابن رشد : (فإن قيل فصفة الكلام من أين تثبت له قلنا تثبت له من قيام صفة العلم به وصفة القدرة على الاختراع فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلاً يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل) (١) .هذا هو رأى الفلاسفة في المسألة يذكره بلسانهم الفيلسوف ابن رشد

أما الحشوية ومن سموا أنفسهم بالحنابلة فإنهم يذهبون إلي أن كلامه تعالي عبارة عن الحروف والأصوات المتتالية والمرتبة فهي بذلك الوصف حادثة قائمة بذات الله تعالي ولا صوت ولا حرف يقوم بغيره وبهذا جوزوا قيام الحادث بذات الرب تعالي عما يقولون علوا كبيراً (٢) .

والجهمية ومن نحا نحوهم : تزعم أن كلام الله مخلوق ويستدلون على باطلهم بقول الله تعالي:﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (٣)

الرد على الحشوية : أما هؤلاء النفر فإنهم في الحقيقة قد تجاوزوا الحد وبعدوا عن الصواب فهم بحق لا يصلحون لأن

---

(١) ابن رشد مناهج الادلة ص ١٦٢ تحقيق دكتور محمود قاسم ط ١٩٦٤.

(٢) وانظر شرح العقيدة الطحاوية .

(٣) الآية من سورة الزمر رقم : ٦٢ .

يكونوا علماء بل يوضعون في عداد العمال إذ لا يصلحون إلا لحمل المعول والفأس وأما العلم فهم منه براء وترد عليهم فنقول باختصار تاركين التفاصيل إلي محلها إذ تكفل علماء الكلام بالرد عليهم من أمثال الايجي صاحب المواقف والتفتازاني صاحب المقاصد والشهرستاني والتلمساني وغيرهم كثير الرد عليهم .

١ – لقد جهل هؤلاء أن الكلام له إطلاقان فقد يطلق ويراد به الحروف والأصوات التى تتكون منهما الكلمات وهذه بلا شك حادثة

وقد يطلق ويراد به المعني النفسي القديم وهذا هو القائم بذات الله تعالي وهو ما قصده أهل السنة فعلي الإطلاق الأول نري العقلاء يمنعون اتصاف الذات العلية به وعلى الإطلاق الثاني يصح أن يطلق على ذات الرب عز اسمه لكونه معني نفسيا متصفا بالقدم .

وعليه فتفسيرهم بما ذهبوا إليه في صفة الكلام من أنها تتكون من الحروف والأصوات الحادثة هذا مذهب قاصر وبعيد عن الصواب والواقع فهم بحق أنكروا الشطر الثاني للكلام اعني المعني النفسي القائم بالذات العلية إذ هو الجدير بوصف الله تعالي وقد وضح الإمام الجيوني هذا الأمر إذ يري أن الدليل على أن الكلام النفسي بخلاف اللفظي أن الأخير ينطق به ثم ينعدم أى يتلاشي وينمحي ولكن دلالته باقية تستمر فإن اللفظة هي التى تنصرم مع استمرار وجدان الاقتضاء في النفس والماضي لا يراد

بل يتلهف عليه وعلى اضطرار تعلم ما نجده بعد انقضاء اللفظ ليس تلهفاً على منقضي [١].

فكلام البشر بحروفه وأصواته ومعانيه النفسية حادث بلا شك لأن البشر محدثون والكلام الخارج منهم حادث مثلهم أما المعني النفسي القائم بالذات العلية فهو قديم فتفسير هؤلاء للكلام بأنه حروف وأصوات فقط فيه ما فيه من القصور والبعد عن الصوت وهذا القول يجعل مثل هذا النفر يسيرون في ركاب المعتزلة وكل ما بين الحشوية والمعتزلة من فرق أن الحشوية قالوا بحدوث الأصوات والكلمات وأسندوها إلي ذات الرب تعالي فجوزوا بذلك قيام الحوادث به سبحانه أما المعتزلة فإنهم أنكروا قيام الحوادث بالذات العلية وحيث أن الكلام والحروف حادث فهي لا تقوم بذاته سبحانه [٢] وسيأتي الكلام مع المعتزلة ومناقشتهم إن شاء الله تعالي فيما بعد وربما غالي بعض الحشوية ممن سموا أنفسهم بالحنابلة فقالوا إن كلام الله هو الحروف والأصوات المتوالية المترتبة وهي في رأيهم قديمة لأنها صفة الله القديم وقد تغالي البعض فوصل إلي ما هو أبعد من ذلك فجعل ما نتلوه نحن قديماً وأن المصاحف التى نكتبها بأوراقها وأغلافها

---

(١) انظر إمام الحرمين الجويني الإرشاد إلي قواطع الأدلة ص ١٠٥ وما بعدها

(٢) راجع تفصيلاً في ذلك شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ص ١٨٣ .

وخبرها قديم ولا يخفي على القارئ جهل هذا الرأي وافتضاح من ذهب إليه [(١)] .

رأي المعتزلة في المسألة :

بعد أن أنهينا الكلام في المسألة ورأي الحشوية فيها والرد عليهم يبقي النزاع قائماً بين أهل السنة من جهة وبين المعتزلة من جهة أخري .

فما رأي المعتزلة في المسألة ؟؟ وما هو موقف أهل السنة منهم؟؟ وما هي الردود عليهم ؟؟ هذه أسئلة تحتاج منا إلي جواب ووقفات حتى يتجلي الأمر وتتضح المسألة وتكمل فائدة البحث إن شاء الله تعالي .

رأي المعتزلة في المسألة :

أما المعتزلة فإنهم ينفون أن يكون لله صفة قديمة تسمي بصفة الكلام النفسي على غرار ما ذهب إليه أهل السنة فهم أي المعتزلة يقفون على النقيض تماماً من أهل السنة في هذه المسألة وربما وافقوا الفلاسفة وساروا خلفهم في هذا الشأن وعند المعتزلة إن الكلام هو المكون من الحروف والأصوات وهو حادث قطعاً وعندما أيقنوا أن الله تعالي لا يقوم به حادث ذهبوا

(١) قارن مباحث في علم التوحيد الإلهيات ص ١٢٤ .

إلي أن معني كون الله متكلماً أنه خلق الكلام في بعض الأجسام كالشجرة مثلاً [١] .

وعندهم أن الكلام النفسي الذي أثبته أهل السنة ليس شيئاً خارجاً عن المعلومات والإدراكات وكل ما يسميه أهل السنة كلام النفس أو حديث النفس ليس إلا العلم بنظم الألفاظ والعبارات وكيفية تأليف المعاني وتركيبها فليس في قلوبنا إلا هذه الأفكار والمعاني التى تعبر عنها بالحروف وأما الأمر والنهي الذي يقول به أهل السنة كتعلقات لصفة الكلام القديمة النفسية فهو دلالة على أن في النفس طلب فعل المأمور به أو المنهي عنه وهذا كله لا يخرج عن الإرادة والعلم والقدرة [٢] ونظرة متأنية إلي ما ذكره المعتزلة نجد وجه الشبه الواضح بينهم وبين ما ذهب إليه الفلاسفة فهم يسيرون في هذه المسألة خلف الفلاسفة خطوة بخطوة إذ وافقوهم في رجوع هذه الصفة (الكلام) إلي القدرة والعلم والإرادة .

ومع أننا نجل المعتزلة ونقدر لهم موافقهم القوية أمام الملاحدة والزنادقة إلا أننا يمكننا أن نقول إن التوفيق لم يحالفهم في ذلك الرأى الذي ذهبوا إليه في مسألة الكلام فالمعروف والمعقول أن الكلام جنس يخالف العلم والقدرة وهذا من أبسط

---

(١) راجع شرح المقاصد للسعد ج ٢ ص ١٠٠ أيضاً اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص٢٢أيضاً حاشية على أم البراهين الصغرى ص ١١٢

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٤ ، ٥٥ أيضا شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٢ .

البدهيات لمن لديه مسكة من عقل فالكلام تعلقه تعلق دلالة وفيه اقتضاء وطلب المأمور به ولا شك أن هذا يخالف تماماً تعلقات القدرة والعلم والإرادة فكيف يقال برجوع الكلام إلي هذه الصفات مع تمام المغايرة بين هذه الصفات جميعاً في المعنى والتعلق فمعني القدرة وتعلقها غير معني العلم وتعلقه وكلاهما غير معني الإرادة وتعلقها ومعني الكلام وتعلقه وهذا ظاهر لمن لديه عقل أو مسحة من عقل كما ذكرت سابقاً .

فالحق حليف أهل السنة في هذه المسألة إذ الثابت لدي العقلاء أن الكلام جنس مخالف للعلم والإدراكات والاعتقادات وليس هو الكلام اللفظي لاستحالة قيامه بحق الله تعالي اسمه فلم يبق إلا أن يكون المعني النفسي القديم الذي هو بحق مدلول الألفاظ وهو المعني الذي ذهب إليه أهل السنة ورددوه في كتاباتهم ومقالاتهم [١] .

وربما استدل المعتزلة ببعض الآيات على ما يريدون من مثل قوله تعالي : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [٢] وكلام الله شيء فيكون داخلاً في عموم قوله تعالي خالق كل شيء فهو إذن مخلوق قال شارح الطحاوية تعليقاً على استدلالهم الفاسد أن ذلك من اعجب العجب وذلك أن أفعال العباد

---

(١) يراجع على سبيل المثال أبكار الأفكار للآمدي ج ١ ص ٣١٤ أيضاً نهاية الأقدام ص ٢٦٩ أيضاً السنوسية الكبرى ص ١٩٨ وغيرها كالمقاصد والمواقف .

(٢) سورة الزمر الآية رقم : ٦٢ .

كلها عندهم غير مخلوق لله تعالي وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم كل وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة إذ بأمره تكون المخلوقات (١) وبعد كلام طويل – قال والمراد من قوله تعالي (خالق كل شيء) أى كل شيء مخلوق وكل موجود سوي الله تعالي فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتما ولم يدخل في العموم الخالق تعالي وصفاته ليست غيره لأنه سبحانه هو الموصوف بصفات الكمال وصفاته ملازمة لذاته المقدسة ولا يتصور انفصال صفاته عنه (٢).

كيف أسمع الله موسى كلامه :

وإذا كان لأهل السنة منهاجهم الواضح في إثبات صفة الكلام النفسي لله تعالي فكيف إذن خلق تعالي الكلام ؟؟ وكيف أسمع بعض رسله كلامه ؟؟

نعم قد أخبرنا الحق تعالي في كلامه العزيز انه متكلم وأنه تعالي اسمه كلم بعض رسله وأنبيائه كما جاء في حق موسى عليه السلام قوله تعالي : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٣) . لكن كيف خلق الله الكلام لموسي ؟ وكيف سمعه موسى من ربه تعالي ؟؟ نري أهل السنة يجيبون عن ذلك بأن الله تعالي أسمع موسى كلاما ليس بحرف ولا صوت وفي هذا الشأن يقول الغزالي :

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٨ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠ وما بعدها .

(٣) الآية سبق تخريجها .

" أن الله تعالي كشف عن صفته القديمة ورفع الحجاب فسمعها موسى – عليه السلام – بدون حرف أو صوت " [١] وعليه فلا مانع في قدرة الله تعالي أن يخلق في موسى عليه السلام قدرة أو قوة بها أمكنه أن يفهم كلام الله تعالي ومن أيقن أن قدرة الله لا تعجز عن شيء لا يمكنه أن ينكر ذلك فالله على كل شيء قدير [٢]

تعليق ورد شبهة :

وللأستاذ الدكتور محي الدين الصافي تعليق على رأى الغزالي السابق نذكره هنا قال سيادته ما نصه : " لكن هذا مخالف لما روي في الأحاديث من أن موسى عليه السلام كان يقول يا رب إني أحسن حسن صوتك ولا أراك وكانوا يقولون إنه كان يسمع الصوت آتيا من جميع الجهات ويسمع بجميع أجزاء جسمه فهذا دليل على انه سمع أصواتا وألفاظاً أما إذا كان علم الكلام بدون تكلم فلا يكون لموسى ميزة عن بقية الأنبياء لأنه كلمهم بإلهام أو بطريق جبريل عليه السلام [٣] .

وأقول تعليقاً على تعليق أستاذنا الدكتور الصافي على رأى الغزالي إن هذا الموقف من الدكتور الصافي يحتاج منا إلي وقفة متأنية:

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٦ .

(٢) راجع دكتور محي الدين الصافي محاضرات في علم التوحيد ص ١٤٥ طبعة سنة ١٩٧٠ م .

(٣) راجع دكتور محي الدين الصافي محاضرات في علم التوحيد ص ١٤٥ طبعة سنة ١٩٧٠ م .

أولاً : استدل على ما قال بالحديث المذكور وبصرف النظر عن مدي صحته أو ضعفه فهو بالدرجة الأولي حديث آحاد وأحاديث الآحاد لا يعمل بها في العقديات .

ثانياً : والأهم من ذلك أن هذا التعليق من أستاذنا الصافي قد الحق العرض بالله تعالي إذ الصوت عرض وهو حادث والله تعالي منزه عن الحوادث ونص الحديث " إني أحسن حسن صوتك " كما رأينا في النص .

ثالثاً : يكفي موسى شرفاً وميزة على بقية الأنبياء أن الله هو الذي كلمة بصفته القديمة والتي كشف له عنها تبارك وتعالي أي لنبيه موسى

رابعاً : أقول هل بإمكاننا أن نسوي بين هذا الطريق الذي خوطب به موسى من الله تعالي وبين طريق الإلهام أو بواسطة جبريل عليه السلام اللهم إن الفرق بين الطريقين واضح وشاسع(١) .

رأي المعتزلة في ذلك :

وعن كيفية كلام الله لموسى عليه السلام فإن للمعتزلة تفسيرا خاصا بهم وهو يخالف تماماً ما عليه أهل السنة والجماعة

---

(١) راجع دكتور عبد المعبود مصطفى سالم الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني حياته وآراءه الكلامية ص ١٥١ طبع الأمانة ٢٠٠٢ .

وعندهم أن الله تعالي أوجد الحروف والأصوات في جسم الشجرة التي كان عندها موسى [١] عليه السلام – أو في أي مكان من الأمكنة وسمعه موسى فهذا معني كلامه تعالي اسمه في نظرهم [٢] أي معني كلامه لموسى عليه السلام فهم كما ذكرت سابقاً ينكرون الكلام النفسي وبما أن الحروف والأصوات حادثة لا يجوز أتصاف الحق بها ولا تقوم بذاته لئلا يلزم قيام الحوادث به تعالي لذا لجئوا إلي هذا التأويل والتفسير لكيفية خلق الكلام لموسى عليه السلام فمعني كونه متكلما إذن لموسى على رأيهم أنه خلق الكلام في جسم من الأجسام فسمعه موسى [٣] .

وفي نظري ونظر الباحثين العقلاء أن هذا ليس حلاً مقبولاً من المعتزلة وأنه تأويل فيه من التعسف لماذا ؟؟

أولاً : إذ لو خلق الله الكلام في شجرة موسى كما هو الإدعاء أو في مكان من الأمكنة كما هو التفسير عندهم إذن لترتب عليه أن يكون الجسم هو المتكلم وليس الله تعالي .

ثانياً : أقول إن هذا التفسير من المعتزلة لكيفية الكلام لا يصح أن يقال كلام بل هو فعل وخلق والخلق لا يسمي قولاً بل بالأخرى يسمي فعلاً [٤] .

---

(١) راجع الشيخ أبو الحسن الأشعري كتاب اللمع ص ٢٣ .

(٢) انظر نهاية الأقدام في علم الكلام ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٣) قارن حاشية علي أم البرهين الصغرى ص ١١٢ .

(٤) راجع كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص ٢٣ وما بعدها ونهاية الأقدام ص ٢٧٩ .

ثالثاً : على أن تأويلهم للآية الكريمة " وكلم الله موسى تكليماً " بأنه خلق الكلام في الشجرة ثم سمعه موسى من تلك الشجرة هو تأويل فيه من التعسف وتكليف للآية فوق طاقتها فالظاهر من الآية بكل وضوح أن الله كلم موسى على الجبل وطبعاً المقصود به الكلام النفسي وليس الحروف والأصوات لأنها حادثة ومحال أن يتعلق به حادث فالله تعالي خلق في موسى قوة بها استطاع أن يفهم كلام ربه تعالي ولا بعد على قدرة الله تعالي في أن يهيئ موسى عليه السلام بأن يخلق فيه من الأسباب والقوة ما يجعله أهلا لسماع كلامه تعالي خاصة وأن قدرة الله تعالي لا يعجزها شيء ولا تعجز عن شيء فهو على كل شيء قدير وهو تعالي القادر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١) .

رابعا : لوجوزنا أن يكون تعالي متكلماً بكلام يقوم بغيره للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه تعالي وبالمثل ما خلقه في الحيوانات ولا فرق عندئذ بين أن نقول نطلق أو أنطق والجلود قالت " أَنطَقَنَا اللَّهُ " (٢) ولم تقل نطق الله بل يلزم من تفسير المعتزلة أن يكون الله تعالي متكلماً بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذباً كفراً كان أو هذيانا لأن الفرض أن الله تعالي خلق الكلام في الشجرة أو في الجسم وهذا ما لم يقل به عاقل (٣) بل يلزم عليه الحلول والاتحاد على ما قال ابن عربي

---

(١) يراجع شرح الصاوي على الخريدة ص ٧٥ أيضاً أم البراهين الصغرى ص ١١١.

(٢) سورة فصلت من الآية رقم : ٢١ .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٩.

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه (١) وقد علق الشيخ عبد العزيز المكي على رأى المعتزلة قائلا " وإن قال أى المعتزلى – خلقه في غيره – أي الكلام – فيلزمه في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه ... ولا يكون الكلام إلا من متكلم كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا العلم إلا من عالم ... فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً عُلم أنه صفة لله (٢) . انتهي كلامه

خامساً : وأما ما استدلوا به من الآية الكريمة ﴿ **نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة** ﴾ (٣) .

زاعمين – بهذه الآية – أن الله خلق الكلام في الشجرة فسمعه موسى فهذا منهم استدلال فاسد إذ أنهم أخذوا من الآية بعضاً وتركوا بعضاً فقد عموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها قال شارح الطحاوية تعليقاً على استدلالهم بهذه الآية الكريمة على فساد مرادهم " وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فإن الله تعالى قال : فلمّا أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن والنداء هو الكلام من بُعْد فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ثم قال " في البقعة المباركة من الشجرة " أى أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة كما تقول سمعت كلام زيد من البيت يكون " من البيت " لابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة ﴿ **يا موسى إنّي أنا**

---

(١) ابن عربي الفتوحات المكية ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) شرح الطحاوية ص ١٨٠ وما بعدها .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٣٠.

الله ربُّ العالمين ﴾ [١] . وهل قالها غير رب العالمين .... [٢] .
واستطرد شارح الطحاوية في ذكر أدلته وبعن معانيها فمن أراد المزيد فليرجع إلي محلها هناك [٣] .

ثم أما بعد

وبعد فقد طال الكلام في حديثنا عن تلك الصفة والذي أراه أنه يتعين على الباحث الذي يؤمن بربه عز وجل أن يعتقد بأن لله كلاما كلم به موسى كما جاء في الخبر الصحيح وكلم به سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وأن كلامه قديم هو به أمر ذاته يدل عليه بالعبارة أو الإشارة أو الكتابة أنزل به القرآن عربيا والتوراة عبرانيا والزبور سريانيا والإنجيل على عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام وأن الاختلاف الحاصل في العبارات دون المسمى فهذا ما نلقى الله عليه سبحانه وتعالي ولا يجوز أبدا أن ننكر أن لله كلاما بحجة أننا لا نعرف كنيهه أو حقيقته بعد ما ثبت ذلك بالدليل القاطع والخبر اليقيني الصادق أنه تعالي متكلم [٤]

وقد أحسن الغزالي رضي الله عنه عندما قال : " إن عدم معرفة حقيقة كلام الله تعالي لا يدل علي عدم الكلام لله تعالي بل ينبغي أن يعتقد أن كلامه سبحانه صفة قديمة ليس كمثلها شيء

---

(١) من سورة القصص الآية رقم : ٣٠ .

(٢) شرح الطحاوية ص ١٨٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨٣ وما بعدها .

(٤) راجع دكتور عبد المعبود سالم الأستاذ أبو إسحاق الاسفرائني حياته وآراؤه الكلامية ص ١٥٢ .

وكما نري ذات الله تعالي برؤية تخالف رؤية الأجسام والأعراض ولا تشبهها فليسمع كلامه سماعاً يخالف كلام الحوادث ولا يشبهها وليس هذا بعيداً على قدرة الله تعالي "(١) . انتهي

فالعقل بحق يعجز عن إدراك كيفية تكلمة سبحانه وتعالي قال شارح الطحاوية " بلا كيفية أي لا تعرف كيفية تكلمة – بالقرآن – قولاً ليس بالمجاز وأنزله على رسوله وحيا أي أنزله على لسان الملك فسمعه الملك جبريل من الله وسمعه الرسول محمد (ﷺ) من الملك وقرأه علي الناس قال تعالي : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ (٢) .

فالتصديق بأن لله كلاماً واجب وأما كيفية ذلك فلسنا مكلفين بها إذ لا يجوز السؤال عن كيفية كلام الله كما لا يجوز تشبيه كلام الله بكلام خلقه وكذا القول في بقية صفات الله تعالي فما أثبته الله تعالي لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الصفات العلية التى تليق بعظمة الله وعزته وجب إثباته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل (٣) .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٥٧ .

(٢) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٥ ، ١٩٦ والآية من سورة الإسراء رقم (١٠٦)

(٣) انظر عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين للشيخ البليهي ص ٢٢٠ ج ٢ .

فالأولى التفويض في مثلها حتى لا تزل قدم وزلة انقدم في مثل هذه الأمور توقعنا في الهلاك والعقاب نسأل الله السلامة لديننا ودنيانا إذن المطلوب هنا إن نفوض في مثل تلك الأمور حتى لا نقع فيما وقع فيه الحنابلة والحشوية والكرامية وغيرهم فالحنابلة قد غالطوا العقل في أبسط بدهياته حيث قالوا بزعمهم إن الكلام المنتظم من الحروف والأصوات قديم وغالى بعضهم فادعى . أن غلاف المصحف قديم كما أن الكرامية أثبتوا كلاما حادثا وجوزوا تعلق الحوادث بذات الرب تعالى على ما سبق البيان (١) . وقد سبق بيان حججهم والرد عليهم هذا والله أعلم

---

(١) راجع على سبيل المثال شرح المقاصد ج ٢ ص ٩١ أيضا الشهرستاني نهاية الأقدام في علم الكلام ص ٣٨٠ وغيرها من المراجع التى سبق ذكرها في محلها .

ثبت بمراجع البحث

١	القرآن الكريم كتاب الله تعالي
٢	كتب السنة الشريفة في الأحاديث
٣	أبكار الأفكار للآمدي تحقيق أحمد المهدي محمد المهدي
٤	الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي حجة الإسلام
٥	أم البراهين الكبرى الشيخ السنوسي
٦	الإرشاد إلي قواطع الأدلة إمام الحرمين الجويني
٧	الأستاذ أبو إسحاق الاسفرابيني حياته وآراؤه الكلامية د / عبد المعبود سالم مطبعة الأمانة
٨	التوحيد وإثبات الصفات للرب تعالي ابن خزيمة
٩	دراسات في الفكر العقدي والأخلاقي تأليف لجنة من قسم العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين القاهرة عام ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م
١٠	السنوسية الكبرى
١١	حاشية الصاوي على الخريدة الشيخ أحمد الدردير
١٢	شرح المقاصد للشيخ سعد الدين التفتازاني
١٣	شرح المواقف عضد الدين الإيجبي
١٤	حاشية أم البراهين الصغرى للشيخ محمد السنوسي
١٥	عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين للشيخ صالح بن إبراهيم البليهي
١٦	شرح العقيدة الطحاوية بتحقيق دكتور عبد الله التركي وآخر
١٧	شرح الشيخ الشرقاوي على الهدهدي

١٨	الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي
١٩	كتاب فيه شرح لمع الأدلة شرف الدين التلمساني مخطوط
٢٠	اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع للشيخ أبي الحسن الأشعري
٢١	مباحث في علم التوحيد الإلهيات لشيخ الأزهر دكتور سيد طنطاوي
٢٢	محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين فخر الدين الرازي
٢٣	شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار للشيخ الأصفهاني
٢٤	مناهج الأدلة لابن رشد تحقيق دكتور محمود قاسم
٢٥	محاضرات في علم التوحيد دكتور محي الدين الصافي
٢٦	نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني

الفهرست

الموضــــــــــــــــوع	الصفحة
المقدمة	٢١٩
إثبات صفة الكلام لله تعالي	٢٢٠
رأى أهل السنة	٢٢١
افتراق الناس علي تسعة أقوال في مسألة الكلام	٢٢٢
دليل أهل السنة على ثبوتها لله تعالي	٢٢٤
الدليل الأول الإجماع	٢٢٥
الدليل الثاني رأى الغزالي في الاستدلال قياس الغائب	٢٢٨
الدليل الثالث السمعي	٢٣١
الدليل الرابع الدليل العقلي	٢٣٥
النافون لصفة الكلام	٢٣٦
الرد على النافين لصفة الكلام	٢٣٨
رأى المعتزلة في المسألة	٢٤٠
الرد على المعتزلة فيما ذهبوا إليه	٢٤٢
كيف أسمع الله موسى كلامه	٢٤٣
رأى أهل السنة	٢٤٣
تعليق ورد شبهة	٢٤٤
رأى المعتزلة في ذلك	٢٤٥
ردود على المعتزلة فيما ذهبوا إليه	٢٤٦
ثم أما بعد كلمة أخيرة	٢٤٩
ثبت بمراجع البحث	٢٥٢
الفهرست	٢٥٤

تم بحمد الله وعونه